طبقات الناس بعد الحرب

رأينا بالامس شريفاً من اشراف الانكليز جالساً في مجلس السائق يسوق اتومبيلهُ بضابط لعلهُ اباهُ كان خادماً عند ابي ذلك الشريف . ويقال بنوع عام ان هذه الحرب اغضت عن مراتب الناس القديمة ولم تنظر الاَّ الى تفوقهم في حسن الرماية وسعة الحيلة والصبر في الملمات ولكن هل تبقى الحال كذلك بعد الحرب

كتبت كونتسة ورك الكاتبة الانكليزية الشهيرة مقالة في هذا الموضوع في مجلة ناش الانكليزية قالت في ديباجتها ان صاحب تلك المجلة سألها هل تساوي هذه الحرب بين طبقات الناس او يخرجون منها وقد زادت الطبقات العليا علوّاً اما انا فلا شك عندي ان الرابح متساوون في الطبقة . ومن غرائب الاتفاق انني قبلما اخذت القلم لاكتب هذه السطور وقع نظري عرَضاً على جريدة مصورة وفيها صورة الملك جورج والملكة ماري وهما يتحدثان مع الجنرال السر وليم روبرتسن رئيس اركان الحرب بل مدير الاسلحة البريطانية الذي يعترف لهُ كل احد بحسن الادارة . ولقد كان هذا الجنرال في اول امره جندياً بسيطاً فارتقى الى ان صار في هذا المنصب الرفيع على ما في نظام الترقية البريطاني من الحوائل العظيمة في سبيل طلاَّب الارتقاء . وقد وقفتْ هذه الحوائل في طريقهِ ولكنهُ تغلَّب عليها وهو الآن لاشعار لهُ الاَّ الكفاءة فلا يحسن احداً ما يحق لهُ

ولقد كان الاستحقاق في انجلترة عندنا مقدماً على النسب فاذا جرت الحرية هذا المجرى وجب ان يكون لعملها اثر كبير في البلاد لان الحرية كانت دائماً مقاومة للمساواة بين طبقات الناس ولم يكن في البلاد سلطة اقوى منها تجبرها على الرضوخ لاحكام الزمان

واني اذكر هنا ما قالهُ لي جنرال مشهور بالامس فانهُ كان يتكلم عن الجنود الذين جنَّدوا حديثاً من جمهور السكان الذين لم يكونوا يفرقون منذ سنتين بين نوع من المدافع وآخر فقال « انهم برهنوا على انهم مثل افضل الجنود في الشجاعة والاخلاق ولا ينقصهم الاَّ التمرُّن حتى ان العدو شهد لهم انهم لا يفوقهم احد من جنود الارض . والصفات الجوهرية التي هي قوام الشعب الانكليزي هي التي تحتاج البلاد اليها سواء كانت في اولاد الازقة او اولاد القصور »

لو قال هذا الجنرال هذا القول منذ سنتين حسب رصفاؤهُ انهُ مجنون . ولقد قامت الآن الوف من الادلة على صحة القول المأثور وهو « ان ساحات الرياضة في مدرسة اتن

هي التي احرزت النصر للانكليز في معركة وترلو» . ومهما يكن من امر المجد والتنشئة فانهما لا يغيران الانسان . والشاب الذي تخرج في مدرسة اتن والذي تخرج من اصلاحية او من مدرسة صناعية اثبتا انهما متساويان في الرجولية . والذين رأوا حرب الخنادق أيدوا هذا القول وكاد الناس كلهم في البلاد الانكليزية يقولون بصحته . وزالت الفطرسة التي كانت تجعل الراغبين في اصلاح الاجتماعية على اليأس . ولا جدال في ان النساء يتمسكن بما بين الناس من الفروق اكثر من الرجال ومن السبب في الاحتفاظ بهذه الفروق سواء كان ذلك عن قصد منهن او عن غير قصد

ولكن النساء رأين الآن خطأهن ولا اعني انهن عرفن ان كل طوائف الناس تتساوى تحت التراب اذ انها هدفا للبلايا على حدٍّ سوى لان ذلك من البديهيات التي لا يختلف فيها اثنان وانما اعني ما اظهرهُ نساء انكلترا في هذا الزمن العصيب من الهمة والاهتمام الحقيقي بمشاركة الجميع في الضراء . ماذا فعلت لادي ڤيردن ڤير . كانت قبل الحرب مقتنعة ان الله اختارها لاظهار عظمته وان فيها من التفوق على غيرها من البشر ما يتعذر عليها تحديدهُ وانها فاقت غيرها بمزايا خاصة بها لا بما لديها من الثروة . لكنها مفطورة على الرأفة والحنان وحب الوطن فلبّت نداء بلادها حالما سمعتهُ فوجدت انها في الادراك والمقدرة والصبر لا تتاس بغيرها من الذين كانت ترفع عنهم . وانها لا تساويهم الأ في عزمها على العمل جهد طاقتها

والمستشفى هو المكان الذي يساوي بين الناس فهناك رأت هذه السيدة قصورها عن غيرها . وبعد تنقلها من عمل الى آخر شفيت مما كان في نفسها من التعجب وانكسار وقلة الحيلة وهي الآن شديدة العزيمة محبة للعمل تفتخر بما يحق لها ان تفتخر به وتعدُّ سائر النساء اخوات لها وتبذل جهدها في اصلاح شأنهن . وقد ابطلت الدعوى التي كانت تؤيدها بالفعل ان لم تؤيدها بالقول وهي ان الناس طبقات يمتاز بعضهم على بعض بالفطرة وتحققت قول كبلنج وهو ان زوجة الامير وزوجة الحقير اختان من دم واحد

وزبدة القول ان الاعتراف بالمساواة جاء لا من قبيل السوقة بل من قبيل السراة . وقد قلتُ « السوقة والسراة » مجاراة للاصطلاح القديم وارجو ان يبطل هذا التفريق بين الناس في المستقبل فيكونوا كلهم طبقة واحدة لان الذين كانوا يعدون انفسهم سراة وحكاماً جعلوا يدركون الآن ان لا اساس لدعواهم وان الذين كنا نعدهم سوقة ولا شأن لهم في مصالح الامبراطورية البريطانية سفكوا دماءهم في الذود عنها مثل السراة ولم يحجم احد

من كل طبقات الامة بل اقدم الجميع الى حيث احتدمت نار الحرب وحرقت التقاليد القديمة التي كانت تفصل بين هذه الطبقات. ولا اقول ذلك اعتباطاً ولا من باب التكهن بالمستقبل لانهُ قد مرَّت سنتان واصدقائي واقاربي يذهبون الى ميدان القتال و يعودون او يعملون في معامل الاسلحة والذخائر وانا اغتنم كل فرصة واسأَلهم واستخلص عن مجاري الاحوال. واري الآن انا اذا رجعنا بعد الحرب الى عاداتنا القديمة وآرائنا العتيقة فيا خيبة المسعى. ولكن ان كان لنا امبراطور به تسخق ان نعيش لها ونموت عنها فسنعلم او سيعلم اولادنا ان الدماء التي سفكت في هذه الحرب لم تذهب هدراً بل جاءت بخير المنافع لانها شدَّت اواصر الامة بعضها ببعض

ولقد ظن البعض ان كثيرين سيجازون بعد الحرب بترقيتهم الى مصاف الاعيان فيزيد تأييد هذه الطبقة. ولكن الذين يُرقَّون على هذه الصورة هم مثل الذين اشتروا رتبهم بالمال او رُقُّوا اليها لغرض سياسي وكلهم لا يحتمل ان يدَّعوا التفوق على غيرهم او يتشبثوا به

المعري وفلسفته

(٢)

عزلته

زهد المعري في الدنيا واعتزل الناس لانهُ كما اسلفنا لم يكن لهُ في الدنيا حظٌّ ولا بمعاشرة الناس طاقة. والعزلة مضادة لطبع الانسان بل لطبع كل حيوان أليف لان الحيوانات الاجتماعية نحن بالرغم منها الى رفاقها ولا تطيق الابتعاد عنها حتى لقد تؤثر الوحدة في بيتها كما تؤثر فيها قلة العلف ومواصلة الاجهاد. وقد روى شارل مرسيه صاحب كتاب العقل والجنون [1] وروايتهُ مشاهدة محققة «ان الجلابين العارفين بعادات الماشية والانعام يذكرون ان البقرة المعزولة لا تدر اللبن ولا تسمن ولا تصلح لشيء مما تصلح لهُ البقرة وسط الصوار». فالاجتماع ضرورة جسمية في الحيوان الاليف قبل ان يكون حاجة نفسية او ميلاً قلبياً. ولن يلجأ الى العزلة رجل متسق البنية متوازن القوى لان اتساق البنية يغني من صاحبهِ استكمال ضروراته ومن اوفاها كما قدمنا الاجتماع والتآلف. وانما

(1) Sanity and Insanity by Charle Mercier.